« تأثيرات اندلسية فى شعر ابى مسلم الرواحى »
جوانب ادبية وفنية مقارنة

دكتور . سمير هيكل . جامعة السلطان قابوس

ليست رائعة الشاعر العمانى أبى مسلم الرواحى * النونية المسماة « بالفتح والرضوان فى السيف والإيمان » هى المعارضة الوحيدة فى ديوانه ، وإنما تبرز هذه المطولة كمعارضة مميزة لرائعة الشاعر الأندلسى أبى البقاء صالح بن شريف الرندى ** الذائعة الصيت :

لكل شئ إذا مـا تمّ نقـصـانُ ... فـلا يُغرّ بطيب العيش إنسان (١)

هذه الأندلسية التى لابد أن تأثر بها شاعرنا العمانى وتمثلت أمام ناظريه كمثال حىّ ينطق بما كان يشعر به من حزن وأسى حينما نظم رائعته :

تلك البـوارقُ حـاديهن مـرنانُ ... فـما لطرفك يا ذا الشجو وسنانُ (٢)

وإذا كان موضوع قصيدة أبى البقاء يدور حول محور واحد هو رثاء الأندلس الضائعة ، والبكاء على القواعد الإسلامية والمدن الأندلسية التى سقطت فى أيدى الإسبان النصارى من مثل بلنسية ومُرسية وشاطبة وجيّان وقرطبة وإشبيلية مبينًا ما آل إليه حالها وحال أهلها الذين سقطوا قتلى وأسرى دون أن يهتز إنسان ، فإن موضوع نونية أبى مسلم يدور حول عدة محاور ، ولذلك يحسن وضعها فى إطار عام وتقسيمها إلى مقاطع حسب الأفكار التى وردت فيها ، ذلك أن قصيدة أبى مسلم هذه

---

* انظر فى ترجمته : مقدمة ديوانه ، تحقيق عبد الرحمن الخزندار وشقائق النعمان للخصيبى (٣٤٧/٢ - ٣٥٧) وشعراء عمانيون لسعيد الصقلاوى (٣٢٧-٣٣٥) وشعراء معاصرون لعبد الله الطائى (٢٩ - ٣٥) .

** انظر فى ترجمته : الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ٣ / ٣٦٠ ، وأزهار الرياض ، تحقيق الأبيارى وآخرين ١، / ٤٧ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى ، تحقيق إحسان عباس ، ٤ / ٤٨٦ .

(١) نفح الطيب ٦ / ٢٧٩ .

(٢) ديون أبى مسلم ٢٩٩ .

تبلغ ثلاثمائة وثلاثة وثمانين بيتًا فى حين لا يتجاوز عدد أبيات نونية أبى البقاء ثلاثة وأربعين بيتًا ، وهذا يعلل تعدد الموضوعات عند أبى مسلم ، فمن شوق وحنين إلى الديار ومعاهد الصبا فى الوطن الأم انتقالاً إلى ذكر مدينة نزوى بيضة الإسلام وعاصمة الإمامة وإلى ذكر الأئمة ورسم لوحة لهم تشعّ بألوان التقوى والهدى ، ثم الانتقال إلى الاستصراخ والاستنهاض مع ذكر الأحياء والقبائل التى كان يناديها من بعيد . وقد احتلّ هذا القسم المساحة الكبرى فى القصيدة قبل أن ينتقل فى النهاية إلى ذكر موقفه المؤيد للإمامة وطلب التأييد والدعم لها . هذا هو الإطار العام للقصيدة التى تدخل فى باب الشعر الوطنى الذى كان معنيًا بتمجيد الوطن والدعوة إلى قيام الإمامة وحث المواطنين على التجاوب معها والالتفاف حولها ، ويشترك أبو مسلم البهلانى مع أبى البقاء الرندى فى الدعوة إلى وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماعهم على الحق والإيمان ليتحقق للأمة ما تصبو إليه من عز ومنعة لتكون قادرة على دفع الأذى عنها ورد كيد المعتدين والخلاص من نير الأجنبى مهما كانت الصورة التى يظهر فيها . ويتمثل موقف أبى البقاء من دعوته إلى الوحدة ودرء الشقاق ونبذ الخلافات والقطيعة فى بيته التالى الذى يخاطب فى المسلمين :

ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان

بينما يتمثل موقف أبى مسلم فى أماكن عديدة من قصيدته نذكر منها :

يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم ... فما لكم بعد خذل الدنّ أو كانٌ
يا للرجال ألا لله منتصرٌ ... فناصر الله لا يعلوه خذلانُ
يا للرجال أرونى من شهامتكم ... إن الحوادث أسادٌ وسيدانُ
يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم ... فالغاية الفتح أو موتٌ ورضوانُ

ولم يكن أبو البقاء ولا أبو مسلم متحيزين فى دعوتهما هذه ، فقد شاركا غيرهما من العشرات الذين هبوا لاستصراخ المسلمين واندفعوا يطالبون بوحدة الصف والتخلى عن الفرقة والقطيعة . وفى العصر الحديث عندما سقط العالم العربى والإسلامى فريسة فى أفواه القوى الكبرى حينما تفككت أجزاؤه وذلّ سكّانه ورسمت على أراضيه خطوط وهمية سميت بالحدود وأصبحت مقدراته نهبًا لأطماع الطامعين من المستعمرين ، عند ذلك تحركت الغيرة العربية والروح الإسلامية فهبّ الشعراء فى عمان كما فى بقية أرجاء الوطن العربى يدعون إلى مناصرة القضايا العربية والإسلامية وينادون بالوحدة وردّ كيد المستعمرين المعتدين . وتتضح هذه الروح الوطنية لدى أبى مسلم البهلانى فى مواقف عديدة ، إضافة إلى ماورد فى قصيدته النونية ، دون أن يمنعه وجوده فى المهجر العمانى فى شرق إفريقيا من المشاركات القومية والوطنية . لقد تأثر أثناء وجوده فى زنجبار بالشيخ محمد عبده وبجمال الدين الأفغانى ورياض باشا ، وكان هؤلاء زعماء دعاة الإصلاح فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين فقامت المراسلات وتوطدت الصلات بينه وبينهم (١) . فاستغل أبو مسلم هذه المناسبة فأرسل قصيدة إلى المؤتمر يعتب فيها على أقباط مصر الذين استجابوا فى ذلك الحين لدعاة التحريض فعملوا على إذكاء نار الفتنة ضد المسلمين مما تمخّض عنه إزهاق للأرواح وقتل للأبرياء . يقول أبو مسلم فى قصيدته (٢) .

يا بنى الأقباط تلكم مصرنا ... أنتم (البنك) ونحن المفتخرْ
إنّ هذا النيل أم حامل ... كلنا يرضع منها ويذرْ
فغت حافلُنا ترضعها ... حبّة أشبه شئٍ بسقرْ
رضّعتها لبنًا ثمّ دمًا ... واغتبطنا بمشاش ووبرْ
وهى لا يُقنعها ما ترتمى ... لا ولا يُقنعها بلعُ الحجرْ

---

(١) شعراء عمانيون ٣٢٨ .

(٢) انظر القصيدة فى ديوانه ٣٥٣ - ٣٥٦ .

ذكرتنا بعصا موسى على أنّ ذى تلقفُ أرواحَ البشرْ
إنْ يكن جيشُ احتلالٍ غرّكمْ فهى أمنية من لا يفتكر
ما يريدُ الجيشُ باستقلالكم بعدما ألقى عصاه واستقرْ
نيلنا فى الغرب يجرى ذهبا وبقينا نترامى فى الحفرْ

كما يتضح اتجاه أبى مسلم الوطنى وبخاصة تجاه وطنه العربى الكبير فى أماكن أخرى من ديوانه حيث نسمعه فى قصيدة أخرى يفتخر فيها بوطنه عمان ويعد بأن يحمل على الاستعمار حتى القيامة وبالتعاون مع الأحرار . وإذا بعمان تصبح عنده معقد الأمل وبؤرة الاندفاع نحو حرية العرب والمسلمين وأنها ستقوم بحقهم لتعيد إليهم مجدهم وتردّ إليهم حقوقهم (١) :

تفضل بالزيارة فى عمان تجد أفعال أحرار الرجالِ
تجد ما شئت من مجد وفضل وأحساب عزيزات المثالِ
تجد من هيبة الإسلام شأنا عليه الكفر مبيّض القذال
تجد هممَ الرجال مصمماتٍ بثأر الدين تُرخِص كلَّ غالِ

إلى أن يقول مخاطبًا شعوب العالم العربى :

سنأخذ حقكم ونزود عنكم زيادًا باليمين وبالشمالِ

وإذا كانت صورة المأساة الأندلسية التى أتقن تصويرها أبو البقاء الرندى مبينًا هول الفاجعة التى تعرّض لها المسلمون فى الأندلس والفظائع التى ارتكبها الإسبان بحقّهم فإن أبا مسلم البهلانى قد أتقن بدوره تصوير ما فعله الاستعمار بالعرب وبالمسلمين . يقول أبو البقاء فى الحث على نجدة المسلمين فى الأندلس وفى بيان المحنة الأندلسية :

---

(١) مقدمة الديوان ، ١٤ .

ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزّهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهمُ من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بُكاهم عند بيعهمُ لهالك الأمرُ واستهوتك أحزان
يا ربّ أمٍّ وطفل حيل بينهما كما تفرقُ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العِلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ أن كان فى القلب إسلام وإيمان

أما أبو مسلم فقد بيّن فى رائعة أخرى غير النونية ، وهى المسماة بالمقصورة (١) ما فعله المستعمرون بأبناء وطنه وبأبناء ملّته من المسلمين ، فقال :

تحكموا فى ملككم ورزقكم وكبسوا البئر وقطعوا الرشا
منوا عليكم بغذاء طفلكم وحشوةِ الماء ونفحة الصّبا
وأزعجوكم عن ظلال ريفكم وليتكم لم تزعجوا عن الفلا
وضايقوكم فى بلاد ربكم حتى على مدفن ميت فى الثرى

إلى أن يقول مبينًا الحالة المخزية التى وصلت إليها أمته :

يلفّنا الخزى إلى أوتاره ويحكم النذلُ علينا ما يرى

أما الحل عند أبى مسلم للخلاص من هذه المأساة فيصوره كما يلى :

ليس لها إلا التفاف قوة بقوةٍ ومقتدى بمقتدى
ليس لها إلا نفوسٌ أطفأت أضغانها واشتعلت فيها التقى
يلمّها الإيمانُ قلبًا واحداً وهيبةُ الله وسورةُ الهدى
إذا رمت بقوسها واحدةً وما رمت وإنما اللهُ رمى

---

(١) انظرها فى ديوانه ٣٣٦ - ٣٥٢ .

وهكذا نرى أن أبا مسلم البهلانى شاعر وطنية صادقة من الطراز البديع وشاعر استنهاض من المستوى الرفيع (١) ، وهو كما قال فيه الشاعر سعيد الصقلاوى فى كتابه (شعراء عمانيون) (٢) :

(وأبو مسلم بلا منازع شاعر استنهاض وهو عصبُ شعره ، ويعتبر الشاعرَ الوحيدَ فى عمان الذى كان همه الاستنهاضَ والدعوة إليه انطلاقًا من مبادئه الإصلاحية وكان يحثّ أبناء عمان على نبذ خلافاتهم والترفّع عن المهاترات وكان شديد الحرص على مستقبل بلاده ، يعذبه واقعها الأليم الذى كانت تُحرق فيه ، وتجرح أحاسيسه ومشاعره الأحداث التى فرضت نفسها على وحدة عُمان ، وكان يبكيه ذلك الانقسام الاجتماعى والفرقة والشقاق بين أبناء الشعب الواحد ، وعدم الانسجام فى كيان الأسرة العمانية الواحدة ، وكان الدين دافعه القوى الذى يحرّك كامن مشاعره ويُشعل فكره بالدعوة إلى الاتحاد والنهوض من السبات العميق الذى كانت تغط فيه) .

من هذا المنطلق نستطيع أن ندرك العامل النفسى الكامن وراء تلك المقدمة الطويلة فى قصيدته النونية التى تدل على انتمائه الوطنى الصادق لوطنه الأم وإيمانه العميق بدينه الحنيف . إن الشاعر الجيد هو الذى يوجد علاقات وطيدة بين مقدمات قصائده والموضوعات التى يتناولها فى هذه القصائد . ويندرج اسم أبى مسلم فى لائحة هذا الصنف من الشعراء حيث نجد مقدمات قصائده قد جاءت نابضة بالحياة زاخرة بها ، ومن هنا يمكن أن يحكم على القصيدة من مقدمتها لأن صناعة الشعر ليست أمراً هينًا وإنما هى عملية صعبة تحتاج إلى الدربة والدراية والجهد والمكابدة (٣) ، وقد ذكر ابن رشيق القيروانى (أن عمل الشعر على الحاذق به أشد

---

(١) الشعر العمانى ، مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ٥١ ، ٥٣ .

(٢) صـ ٣٣٤ .

(٣) مقدمة القصيدة العربية فى العصر الجاهلى ١٨٠ .

من نقل الصخر ، وأن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل ، أهول ما يكون على العالم ، وأنّ أتعب أصحابه قلبًا من عرفه حق معرفته) (١) .

العلاقة بين المقدمة وموضوع القصيدة عند أبى مسلم وأبى البقاء :

١ - بين المقدمة والموضوع عند أبى مسلم :

إن الدارس لنونية أبى مسلم يكاد يسمع من خلال مقدمتها نبضات قلب الشاعر الذى كان يخفق بالشوق والحنين إلى ديار الوطن الأم ومعاهد الصبا فى نغم حزين على أيام وديار ، ومن هنا جاءت مقدمة قصيدته معبرة عن ذاته أجمل تعبير ومصوّرة للحالة النفسية المؤلمة التى كان يعانى منها فى ذلك الحين حينما استثار لواعجه وأشواق بُعده عن وطنه عُمان وتذكره لأهله وأحبته وعشيرته وحنينه إلى معاهده ودياره فى وطنه الأم ، وقد صرّح بذلك منذ البداية :

إنى أشحُّ بدمعى أن يسُحَّ على ... أرض وما هى لى يا برقُ أوطان
هبك استطرت فؤادى فاستطر رمقى ... إلى معاهدَ لى فيهن أشجانُ
تلك المعاهدُ ما عهدى بها انتقلت ... وهنّ وسط ضميرى الآنَ سكّانُ
نأيتُ عنها ولكن لا أفارقُها ... بلى كم افترقت روحٌ وجثمانُ

وهو فى بيته الأخير هذا كأنما يتمثل بيت ابن عبد ربه (٢) :

الجسمُ فى بلد والروحُ فى بلدٍ ... يا وحشةَ الروح بل يا غربةَ الجسدِ

إن عاطفة الشوق والحنين عامل مشترك يجمع بين كل الشعراء الذين عانوا من الغربة واكتووا بنارها ومن هنا كانت المعاناة دافعًا من دوافع التفوق والإجادة فى نظم هذا الموضوع الذى يتخذ من الألم لُحمتهُ ومن المعاناة سُداه . وهكذا جاءت مشاركة شاعرنا أبى مسلم لغيره من الشعراء الذين جمعتهم رابطة الأسى وألفت بينهم وحدة الموضوع مشاركة تمتاز بالصدق والإخلاص . ومن بين هؤلاء الشعراء الذين شاركهم

---

(١) العمدة ١ / ١١٧ .

(٢) المطرب ١٥٣ .

أبو مسلم في البكاء على الأوطان والديار نذكر الشاعر الصقلي ابن حمديس الذي ناح على وطنه بعد ضياعه فخرج منه وظل يبكيه حتى وافاه الأجل المحتوم فكان من جميل ما قاله في هذا المضمار (١) :

ذكرتُ صِقلّيةَ والأسى ... يهيّجُ للنفس تذكارها
ومنزلةً للتصابي خلتْ ... وكان بنو الظُرف عُمّارها
فإن كنتُ أخرجت من جنّةٍ ... فإني أحدّث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماءِ البكاءِ ... حسبتُ دموعيَ أنهارَها

وهناك شاعر أندلسي آخر يكاد يشترك معه أبو مسلم في تذوق معنى الغربة والبعد عن الأوطان وفي المعاناة مما سببه الحرمان فكأنما نطق الاثنان بلسان واحد ، هذا الشاعر الأندلسي هو ابن عُميرة ، وإنما ذكرناه في المقام لنبين التشابه الكبير بين بعض أبياته وأبيات أبي مسلم الرواحي في الحنين إلى الوطن . لقد قضى ابن عميرة معظم حياته خارج مسقط رأسه جزيرة شُقْر ، تمامًا كما فعل أبو مسلم ، وتنقّل بين مراكش وتونس وما حواليهما ، لكنه ظلّ يحنّ إلى مسقط رأسه ومرابع صباه فكان يتنسم الأخبار عن الوطن والأحبة وهو مقيم في الغرب ، لكن هذه الأخبار أكدتْ له استحالة رجوعه إلى وطنه الذي سقط في أيدي الإسبان الذين نكلوا بأهله وعبثوا بجماله وأفسدوا خيراته (٢) . فجاء حنينه ناراً مستعرة تتأجج بلهيب البعد والحنين والحرمان . ومما قاله هذا الشاعر في التذكر والحنين إلى مسقط رأسه شُقر ، وبلدته بلنسية وكل المدن في شرقي الأندلس (٣) :

تذكّر عهدَ الشرق والشرقُ شاسعُ ... وذاب أسى للبرق والبرق لامعُ
وأتبع ذكر الجزعِ أنّةَ موجَعٍ ... له أبداً قلبٌ على الجزع جازعُ
كفى حَزَنًا نأيٌ عن الأهل بعدما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقعُ

---

(١) ديوانه ١٨٣ .

(٢) رثاء المدن في الشعر الأندلسي ٤١٣ .

(٣) المرجع السابق .

نوى غـــــربةٍ حـــــتى بمنزل غُـــربةٍ لقـــد صنعَ البينُ الذى هو صـــانعُ

أحنُّ إلى أرضٍ تقـــادم عـــهـــدُها ومن دونهـــا أيدى الخطوب الموانعُ

وكـــيف بشُـــقـــرٍ أو بزُرقـــةِ مـــائهِ وفـــيـه لشُـقْـر ، أو لزرقٍ مُـشـــارع

وهكذا يصرح هذا الشاعر - وفعل مثله أبو مسلم الرواحى من بعد - أنه يشعر بالغربة حتى وإن كان فى أوطان عربية وديار إسلامية طالما كان بعيداً عن الوطن الأم والأهل والأحباب . وهكذا جمع بين هؤلاء الشعراء نسب الغربة وشكوى البعد والحنين ، لأن كل غريب للغريب نسيب . وقد وصل الحال بأحدهم وهو أسامة بن منقذ أن ألف كتابًا كاملاً فى موضوع الغربة والحنين وسمّاه (المنازل والديار) إذ لم يكتف بنظم قصيدة أو قصائد كما فعل غيره من الشعراء ، ولذلك كان هذا الكتاب أهم ما وصل إلينا عن موضوع الغربة والحنين دون أن يخالطه موضوع آخر ، فكأنما هاج ألم الغربة بالمؤلف فأنساه كل الموضوعات الأخرى ، فهو يصرح بذلك فى مقدمة كتابه حيث يقول :

(وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيتُ من زمانى ، وانفرادى من أهلى وإخوانى ، واغترابى عن بلادى وأوطانى) .

لقد ذكرت كل هذه الأمثلة لبيان مدى تأثير حالة الحزن والأسى التى سيطرت على شاعرنا أبى مسلم من جراء الغربة والحنين ، فجاءت مقدمة قصيدته خير شاهد على ما كان يشعر به ويحسّه فى قلبه وروحه .

لقد صرح أبو مسلم فى مقدمة قصيدته كما صرح ابن عميرة فى أبياته السابقة بشوقه لربوعه وتذكّره لمعاهده التى تحيا فى قلبه وتعيش فى وجدانه رافضًا السلوان ومنكراً النسيان يعيش فى غربته عيش السليم الذى لا يجد الترياق فهو دائم الألم متصل الآهات حتى لو شقّ جسمه فصار كالخيال . إنها النوى التى حكم بها القدر ، ولا يغلب القدر المحتوم إنسان :

تلك المعاهدُ ما عهدى بها انتقلت وهُنّ وسط ضميرى الآن سكّانُ
وكيف أنسى عهودى فى مسارحها وهنّ بين جنان الخُلد بُطنان
أم كيف يمكن سلوانى فضائلها نعم لدىّ لذا السلوان سلوانُ
معاهدُ شاقنى منها محاسنُها إن شاق غيرىَ آرامٌ وغزلانُ
لها على القلب ميثاق يبوءُ به إن باء بالحبّ فى الأوطان إيمانُ
كأننى واغترابى والغرامُ بها حيٌّ قضى خلفته بعد أحزانُ
هى النوى جعلتنى فى محاجرها مثل الخيال وروحى ثَمّ جثمانُ
أعيشُ فى غربةٍ عيش السليمِ على رُغمى وليس إلى الترياق إمكان
يا برقُ حرّك همومى إن تكن سكنت فكلّ حظّى تحريكٌ وإسكانُ

إنّ هذا الحزن المتمخّض عن الغربة والحنين ما هو إلا مرآه تعكس حزن الشاعر العميق لحالة الفرقة التى كانت سائدة فى بلاده فى ذلك الحين كما تعكس ألمه وأساه لما شاهده فى بلده من خلاف بين الإمامه والسلطة السياسية ، وهو الوطنى الذى صرّح بانتمائه وبغيرته وحماسه لجمع شمل الأمة بل الأمة العربية جميعًا . وعندما لم يتمكن من الانتقال بجسمه إلى ربوع وطنه الأم فقد قام برحلة طار فيها من خلال روحه (١) ليتحسس بها تلك الأماكن الحبيبة ويزور من خلالها دياره البعيدة القريبة بعد أن سرّح به الوجد وطار به الحنين ، والهوى ضرب من الطيران . لقد حلق به حزنه فى أجواء معاهده وفوق ربوع أوطانه ، وهذا يفسّر قوة الحركة التى بدأ بها قصيدته حينما رسم لوحة رائعة للبرق والمطر واندفاع الماء فى السهول والأوعار . إنها الحركة المتوثبة الكامنة فى ضلوعه وفى أحشائه :

إن هيّج البرقُ ذا شجوٍ فقد سهرتْ عينى وشبّت لشجو النفس نيرانُ
وصيّر البرق جفنى من سحائبه يا برق حسبك ما فى الأرض ظمآنُ

(١) فعاليات ومناشط المنتدى الأدبى ، إصدار يونيو ١٩٩١ ، ص ٢٥٩ .

وقد لجأ أبو مسلم البهلانى إلى طريقة الاستلهام فى التعبير عن عاطفة الحزن الملتهبة التى تأججت بفعل البعد والحرمان ، كما لجأ من أجل التنفيس عن هذه الأحزان إلى استخدام الألف الممدودة فى نهاية القافية وهذا يعنى تمكين الشاعر من مدّ الصوت فكأنما هى صرخة ألم ونفثة أسى عبر عنها الشاعر فى نغم وإيقاع يمتلئ برنين وحنين :

وهل ذُرى القفْصِ فالمقراةِ مُعَشَبةٌ ... وهل قطينٌ بعَليا قاعرٍ بانوا
عهدى بها ونضيرُ العيش يصحبُها ... والدهرُ فى غفلةٍ والشّهب إخوان
نشأتُ فيها وروضاتى ومرتبعى ... روح الفضيلة لارندٌ وريحانُ
يا ناقلَ العيشِ من عليا بديّةَ حيث اليحمُدُ الحائزون المجدَ قُطّانُ
خلّفْ وراءك عِزاً والمضيربَ والدريزَ والقابلَ الراسى بها الشانُ
وخلّ ابراءَ أعلاها وأسفلها ... حيث القطين ملوكُ الناسِ قحطانُ
وخُذْ بأوجُهها عن ساحتىْ سمَدٍ ... مياسرَ الفتحِ حيث الحىُّ كهلانُ
ودعْ وراءَك إن غرّبتَ أخشبةً ... تجرى المجرةُ فيها وهى سَدْرانُ
ويا مِنِ الروحَ والخضراءَ منتجعا ... أفناءَ حلفينِ حيث السّوْحُ جَرنانُ
واعمد إلى الجوفِ واستظهر أسافلَها ... أرضٌ لعامرَ أهلِ الفضلِ أوطانُ
وافرُق بها البيدَ حتى يستبينَ لها ... فَرقٌ على بيضةِ الإسلامِ عنوانُ
فإنْ تيامنت الحوراءُ شاخصةً ... لها مع السُّحْبِ أكنافٌ وأحضانُ
فحُطّ رجلَكَ عنها إنّها بلغتْ ... نِزوى وطافت بها للمجد أركانُ

وهكذا نجد أن نزوى كانت خاتمة المطاف فى رحلة الشاعر الوطنية ، وكانت الأماكن التى سبقتها جسوراً للوصول إليها ، فهى بيضة الإسلام ، وهى مقرّ الإمامة التى كان الشاعر من أنصارها ومن دعاة التأييد لها . وهذا يعلّل النفَس الطويل فى مقدمة القصيدة ، ويبرر حزن الشاعر وألمه النفسى ، إذ إن همّه أن يصل إلى أرض الإمامة ليحمل لواء التأييد لها . ولما كان ذكر المكان يستدعى ذكر ساكنيه ، فإننا

نجد الشاعر ينتقل بعد ذلك إلى ذكر الأئمة ومدحهم وإظهار مناقبهم ، وبيان الصبغة الدينية التى كانوا يتحلّون بها من عدل وفضل وإنصاف وإحسان :

انزلْ فـديتك عنهـا إن حـاجتَـهـا عـدلٌ وفـضلٌ وإنصـافٌ وإحـسـانُ
انزلْ فـديتُكَ عنهـا إن وجْـهَـتَـهـا تَختُ الأئمـةِ مذ كـانتْ ومـذ كـانوا
انزلْ على عـرصـاتٍ كلُّهـا قُـدُسٌ للحق فـيـهنّ أزهارٌ وأفنانُ
انزلْ على عَـذَباتِ النور حـيث حوت أئمـة الدين بُطنانٌ وظهـرانُ
حـيث الملائكة احـتلّت مـشـاهدهم لهـا على الحلّ والتـعـريج إدمـانُ

إلى أن يقول مبينًا مكانة نزوى فى الإسلام :

رست بهـا هضبـةُ الإسلام من حقبِ وإن قـضتْ باسـتـتـار العدل أحيـانُ
قـديمة الذكـر عـاذَ الدين عـائذُها من يوم أصـبح توحـيـد وقـرآنُ
قـامت بهـا قـبـةُ الإسـلام شـامـخـةً حـتى تواضَعَ بَهـرامٌ وكـيـوانُ
ولم تزل عَـرْصَـةً للعـدل عـاصـمـةً للاسـتـقـامـةِ فـيـهـا الدهرُ سلطانُ
كم أشـهرَ اللهُ فـيـهـا من حسام هدى كـأنهـا لـسـيـوف الله أجـفـانُ
كنانةٌ لـسـهـام الله مـا فـرغتْ مـذ كـان للجَـوْر سلطانٌ وشـيطانُ

من هنا يبدأ غرض الشاعر بالظهور والوضوح بعد مقدمة وتمهيد بلغت فيها أبياته قرابة خمسة وأربعين بيتًا ، انتقل بعدها إلى مدح الأئمة واستنهاض القبائل لتأييد الإمامه وتتضح أهميـة مقدمـة النونيـة عند أبى مسلم إذا عرضنا لنونيـة أبى البقاء الرندى لنرى كيف يشترك الاثنان فى التمهيد للوصول إلى الغرض والغاية .

٢ - بين المقدمة والموضوع عند أبى البقاء :

إذا كان أبو مسلم البهلانى قد عبّر عن حزنه العميق وألمه الدفين بالسهر الدائم وبصورة عينه وهى تسحّ الدموع التى انهمرت كالمطر الذى أهاج البرق سحابته ، فى مقدمة طويلة تعكس مساحة حزن الشاعر الكبيرة الممتدة من بلاد الغربة إلى الوطن

الأم ، فعبّر عن ذلك بقوله :

إن هيج البرقُ ذا شجو فقد سهرت عينى وشبّت لشجو النفس نيرانُ
وصيرَ البرقُ جفنى من سحابته يا برق حسبُك ما فى الأرض ظمآنُ

إذا كان هذا حال أبى مسلم فى مقدمته ، فإن أبا البقاء الرندى قد لجأ إلى أسلوب آخر للتعبير عن حزنه العميق وألمه الدفين للتخفيف عن نفسه الملتاعة المكتظة بمشاعر الحسرة والأسى على ديار من الإسلام خالية ، حينما حلّت الحالقة فأتت على كل شئ فلم تبق أركان وخلت من الدين أقطار وبلدان .

لقد ضاعت الأندلس وأصبحت دياراً غريبة عن الجسم الإسلامى فلم يعد يرتفع فى أرجائها صوت أذان وتحوّلت مساجدها إلى كنائس فيها نواقيس وصلبان ، وأى مصيبة بل أى فجيعة أكبر من ضياع الإسلام وديار المسلمين . ومع استحالة العزاء والسلوان لهذا المصاب العظيم ، فقد لجأ أبو البقاء الرندى فى مقدمة نونيته إلى استخلاص العبرة والعظة من أحداث التاريخ فضرب المثل بالممالك الزائلة والملوك العظام الذين بادوا متسائلاً عن مصيرهم ومصير ممالكهم وما آل إليه حالهم ليخلص فى النهاية إلى حقيقة مؤادها أن الكل إلى زوال وأن الجميع سيرحلون مهما امتد بهم الأجل وطالت أعمارهم وعظمت سطوتهم واتسع ملكهم ، فكأن أبا البقاء يحاول أن يجد العزاء لنفسه وللمسلمين بقوله إنّ كل أمر إذا ما تم سيصيبه النقصان لأن الأيام دُول ، ومن سرّه زمن ساءته أزمان ، وهذا هو التاريخ يشهد على ذلك وها هى أحداثه تقدم البراهين . وإذا كان هذا هو حال الأيام التى لا تُديم سروراً ، وهذا هو الدهر الذى لا يبالى برضى أحد فإنّ ما حل بالأندلس هو أمر حتمى ونتيجة طبيعية للإيذان بالزوال بعد البلوغ والكمال . ومن هنا كانت مقدمة أبى البقاء فى نونيته صورة منطقية لدوران علة التاريخ وحوادث الأيام حيث يصرح الشاعر بذلك فى مقدمته بدءاً من أول بيت فيها (١) :

لكل شئ إذا ما تم نقصانُ فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دولٌ من سره زمن ساءته أزمان

(١) نفح الطيب ٦ / ٢٧٩ .

وهذه الدارُ لا تبـــقى على أحـــد ولا يدوم على حـــال لهـــا شـــانُ
يمزق الدهرُ حـتـمًـا كل سـابغـة إذا نبت مـشـرفـيّـاتٌ وخُـرصـانُ

وهكذا جاء مطلع القصيدة حكمة عامة أو مجموعة من أشعار الحكمة استخلصها الشاعر من عبر التاريخ فكان الإطار إطاراً عامًا انتقل بعده الشاعر من العام إلى الخاص [1] ليحدد الزمان والمكان . أما فى إطاره العام فيسير أبو البقاء مع أحداث التاريخ ليتخذها مجالاً لاستخلاص العبرة والعظات :

أين الملوك ذوى التيـجـان من يمنٍ وأينَ منهم أكـاليلٌ وتيـجـانُ
وأين مـا شـاده شـدّادُ فى إرمٍ وأين مـا سـاسه فى الفُرس ساسانُ
وأين مـا حـازهُ قـارونُ من ذهب وأين عـادٌ وشـدادٌ وقـحطانُ
أتى على الكلّ أمـرٌ لا مـردّ له حتى قضوا فكأنّ القومَ مـا كـانوا
وصـار مـا كـان فى ملكٍ ومن ملكٍ كمـا حكى عن خيـال الطيف وسنانُ
دار الزمـانُ على دارا وقـاتله وأمّ كـسـرى فـمـا آواهُ إيوانُ
كـأنما الصـعبُ لم يسـهل له سـببٌ يومًـا ولا ملك الدنيـا سليـمـانُ
فـجـائع الدهر أنواعٌ منوعـةٌ وللزمـان مـسـرّاتٌ وأحـزانُ
وللحـوادث سُلوانٌ يسـهّلهـا ومـا لما حلّ بالإسـلام سلوانُ

وهكذا نرى أن هذا التمهيد مرتبط ارتباطًا عضويًا بموضوع القصيدة والغرض الذى نُظمت من أجله ، وقد رأينا كيف أتى أبو مسلم البهلانى بمقدمة وتمهيد للوصول إلى الغرض الرئيسى من نونيته وكانت مقدمته أيضًا مرتبطة ارتباطًا عضويًا ومنطقيًا بما تلاها من أغراض .

ثم ينتقل أبو البقاء من العام إلى الخاص فحدّد الزمان والمكان واصفًا ما حلّ ببلاد الأندلس من محنة وبلاء ذاكراً البلاد المنكوبة التى سقطت فى أيدى الفرنجة (فيعددها واحدة واحدة شأن من يفقد أعزة عليه فيسميهم بأعينهم ويعرب عن

---

(١) ملامح الشعر الأندلسى ٣١١ .

فجيعته بهم . وأبو البقاء يحرص حرص أمثاله من الشعراء فى هذا الصدد على إبراز التضاد بين ما كانت البلاد عليه وما آلت إليه) (١) .

دهى الجـــزيرة أمـــر لا عـــزاء له ... هوى له أحُـــدٌ وانهـــدَّ ثهـــلانُ
أصابهـا العينُ فى الإسلام فـارتزأت ... حـــتى خلت منه إقطارٌ وبلدانُ
فـاسـأل بلنسـيـةً مـا شأنُ مـرسيـةٍ ... وأين شـــاطبـــةٌ أم أين جـيـــانُ
وأين قـــرطبـــة دار العلوم فـكم ... من عـالمٍ قـد سـمـا فـيـهـا له شـانُ
وأين حـمصٌ (٢) ومـا تحويه من نُزَهٍ ... ونهـــرها العـــذبُ فـــيـاض ومـــلآنُ
قـــواعـــد كن أركـــان البـــلاد فـــمـــا ... عـــسى البـــقـــاءُ إذا لم تبق أركـــانُ

كـمـا يـلـجأ أبو الـبـقاء إلى الاسـتنفار والاستـنهاض علـه يـحرك نـخوة المسلمين فيستغضبهم ويستنهضهم لعلهم يصحون من سباتهم ويتخلون عن تقاعسهم وهو فى كل ذلك يـلجأ إلى تذكيرهم بالرابطة الإسلامية التى تـربطهم بإخوانهم الأندلسيين وبالأخوة الدينية التى تؤلف بين قلوبهم مصوراً الحالة التى آل إليها الإسلام والمسلمون فى تلك الديـار فلجأ لتحقيق هذا الغرض إلى رسم لـوحة مـعبّرة للمصيبـــة التى لا تنسى ، وقد نجح الشاعر فى عمله الفنى فجاءت الصورة مجسمة هول الفجيعة وفداحة الخطب وإذا بالمصيبة تبدو شاكية باكية :

تبكى الحنيـفـة البـيـضـاءُ من أسفٍ ... قـد أقـفـرت ولهـا بالكفـر عُـمـرانُ
حيثُ المساجدُ قد صارت كنائس ... مـــا فـــيـــهن إلا نواقـيس وصلبـــانُ
حـتى المحـاريبُ تبكى وهى جـامـدةٌ ... حـــتى المنابرُ ترثى وهى عـــيـــدانُ
يا غـــافـــلاً وله فـى الدهر مـــوعظةٌ ... إن كنت فـى سنة فـــالدهرُ يـقـظانُ
ومـــاشـــيًـــا مـــرحًـــا يلهـيـــه مـــوطنه ... أبعـــدَ حـــمصٍ تغـــرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المصـيـبـةُ أنست مـا تقـدّمـهـا ... ومـــالهـــا مع طول الدهر نـســيـــانُ

---

(١) المرجع السابق ٣١٣ - ١٤ .
(٢) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيلية .

أما صورة الاستنهاض عند أبى البقاء فستظهر بطريقة أوضح عند بيان صورة الاستنهاض عند أبى مسلم من خلال الحديث عن بعض الجوانب الفنية فى نونيته .

جوانب فنية نونية أبى مسلم :

مما لاشك فيه أن أبا مسلم قد جمع لقصيدته النونية كل عوامل النجاح والتفوق من عناصر الفن ومقومات الصناعة الشعرية فجاءت متكاملة الجوانب حينما صيغت بقوالب الشاعرية المتدفقة التى اتخذت من الإدراك والمهارة مجالاً خصبًا للإجادة والامتياز . وقد كان نجاح الشاعر عظيمًا فى عمله وأدائه ، ولا أول على ذلك من تلك الشهرة التى حظيت بها هذه النونية والمكانة المرموقة التى نالتها فى ديوانه حتى ليمكن تسميتها بـ « يتيمة أبى مسلم » . وقد تناقلتها الألسنة فطربت لها الآذان وسارت بها الركبان إلى خارج أرض عُمان مما جعل صاحب شقائق النعمان يقول [١] عنه (كما أنه نبغ فى الشعر وفاق فيه على أقرانه ، وهذا الشيخ هو ثالث الثلاثة المترجم عنهم أنهم أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، وقد سار الصيت بقصائده مسير الشمس ولو لم يكن من شعره إلا النونية والمقصورة لكانت بهما كفاية وغنى) .

إنّ أول ما يميّز نونية أبى مسلم هو الصدق الفنى حيث عبّر عن عواطفه ومشاعره بصورة هى أصدق ما تكون ، ومردّ ذلك يرجع إلى إحساس الشاعر وإيمانه بما يقول وبما تمليه عليه التزاماته الوطنية والدينية . فأبو مسلم شاعر وطنى مسلم رفع لواء الوطنية عاليًا وحمل مشعل الإسلام ونادى بوحدة المسلمين وطالب بنبذ الفرقة والخلاف . وإذا كان الصدق والإخلاص نابعين من نفس الشاعر الذى يؤمن بقضية مبدأ ، كان عمله الشعرى أكثر نجاحًا وأشدّ تأثيراً . وهذا ما نجده فى شعر أبى مسلم الذى آمن بوحدة الأمتين العربية والإسلامية واتخذها قضية حشد لها كلّ الزخم الفنى الذى انعكس فى قصائده الوطنية ومن بينها النونية التى نحن بصددها . لقد كان أبو مسلم ينتمى إلى جماعة الشعر الدينى والوطنى ممن نادوا بتحرير الوطن العربى والأمة العربية من النفوذ الاستعمارى الذى كانت مناطق الخليج - كغيرها من مناطق العالم العربى - ترزح تحت

---

(١) ٢ / ٣٤٧ .

نيره وأغلاله . ومن هنا جاءت قصائده الوطنية والدينية تحمل طابع الاستنهاض وكان لها وقع بالغ الأثر على النفوس . ولتحقيق هذا الهدف ، أي إيقاظ الروح الوطنية والمشاعر الدينية ، كان لابد من الالتفات إلى المصائب الوطنية والدينية التي ابتُلي بها العالمان العربي والإسلامي وأخذ العبرة منها ومحاولة (محاكاة النماذج الأصلية في الأدب العربي) [1] . ومن هنا جاءت هذه النونية محاكاة لنونية أبي البقاء الرندي .

لقد نجح الشاعر منذ البداية في حشد كل العناصر الفنية اللازمة لنجاح عمله من جزالة في الأسلوب وقوة في اللغة إلى إيقاع ورنين في القافية ثم طول نفس من غير ضعف أو تقصير . لقد لجأ أبو مسلم إلى توظيف كل هذه الأمور الفنية بدءاً من مطلع القصيدة حينما قام بتوظيف المعاني والمفردات توظيفًا فنيًا دقيقًا ليرسم لنا صورة متحركة تعكس الحركة الثائرة في داخل نفسه :

تلك البوارق حاديهن مرنانُ ... فما لطرفكَ يا ذا الشجو وسنانُ
شجت صوارمها الأرجاء واهتزعت ... تزجي خميسًا له في الجو ميدانُ
تبجّست بهزيم الودق منبثقًا ... حتى تساوت به أكُم وقيعانُ
سقى الشواجنَ من رضوى وغص به ... سرُ وجوف وغصت منه جُرنانُ
وجلل السهلَ والأوعارَ معتمداً ... ربوع ما ضم عندامُ وجُعلانُ

إن هذه الصورة الجميلة التي رسمها الشاعر تفيض بالحركة النابضة التي تعكس الحركة الداخلية في نفس الشاعر ، ونلاحظ هذه الحركة في البروق التي تصبح ركبًا متحركًا يسوقه حاد يغني بصوت كله رنين ، والبرق يتبعه الرعد ، فإذا أرجاء الكون تهتزّ ويصبح الجو ميدانًا فسيحًا لجيوش البروق والرعود المتمثلة بالأمطار الغزيرة التي لا تلبث أن تداهم الأرض فتغمرها وتغطيها في السهول والأوعار . لقد عمد الشاعر إلى أن يفجأ سامعيه بصورة متحركة تشعّ قوة وتمتلئ حيوية فتتحرك حواسهم ونفوسهم للمتابعة والاستمرار ليتمكن من نقلهم إلى صورة أخرى من مشاهد قصيدته . ويلاحظ

(١) الشعر العماني - مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ٥١ .

أن مقدمة أبى مسلم هذه هى أشبه ما تكون بمقدمات القصائد الجاهلية من حيث الأسلوب واستخدام المفردات . وليست هذه هى المقدمة الوحيدة فى ديوانه التى يأتى فيها الشاعر بمقدمة تشبه من حيث الشكل مقدمات الجاهليين ، وإنما نلحظ ذلك فى مقدمة ميميته المشهورة (١) :

معاهد تذكارى سقتكِ الغمائمُ ... مُلِثًّا متى يُقلع تلته سواجمُ

فالمطلع هنا شبيه بمطالع الجاهليين فى الوقوف على الأطلال والدعاء بالسقيا للأحبة والديار . ويتضح هذا الأسلوب فى الأبيات التالية للمطلع :

تعاهدك الأنواءُ سُحٌّ بعُاقُه ... فسوحك خضرٌ والوهادُ خضارمُ
إذا أجلفتْ وطفاءُ حن حنينها ... على قنن الأوعار وطف روازمُ
ولا برحت تلك الرياضُ نواضراً ... تُضمنها طيبَ السلامِ النسائمُ
تصافحها بالزاكيات أكفُّها ... فُيحسب فيها والرياض تراجمُ
معاهد شط البعد بينى وبينها ... وحلّ بقلبى برحُها المتقادم
تزاحم فى روعى لها شوقٌ والهِ ... وصبرٌ وآن الصبرُ أن لا يزاحَم
إذا لاح برق سابقته مدامعى ... وليتَ انطفاءَ البرقِ للغرب عاصمُ
لئن خاننى دهرى بشحط معاهدى ... فقلبى برغم الشحط فيهن هائمُ
وإن هيام القلب فيها وقد نأت ... وسائل فى شرع الهوى ولوازمُ
فيا لفؤادى ما التباريح والجوى ... فعلن إذا ازدادت عليه اللوائمُ
على أن ذكر النفس عهداً ومعهداً ... أمضّ بها مما تمجّ الأراقم

يلاحظ فى هذه الأبيات أن أبا مسلم قد رسم لوحة أخرى تنبض بالحيوية شبيهة بتلك التى رسمها فى مقدمة نونيته مع ذكر الجزيئات نفسها المتعلقة بحركة البرق فى السماء وما تؤذن به هذه الحركة من انهمار للمطر فتسبقه مآقى الشاعر لتذرف الدموع حزنًا على اغترابه عن معاهده وتعبيراً عن هيامه بالديار وساكنيها ، فذكر العهد

(١) ديوانه ٣١٦ .

الجميل بعد نأى وانقطاع يخلف وراءه ألمًا وأسى أمض مما تمجّه الأفاعى من سموم .

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الشاعر فى مدح الأئمة وما أسبغه عليهم من صفات دينية تتمثل فى التقوى والتهجد فى الليل وفى عدلهم واستقامتهم وغناهم بالتعفف عن كل ما هو دنيوى زائل شبيه بأسلوب أبى حمزة الشارى فى خطبته بأهل المدينة حينما ذكر أصحابه فأثنى عليهم وامتدحهم بما يتصفون به من ابتعاد عن الشر وإحجام عن الباطل فقد باعوا الدنيا الفانية واشتروا بها الآخرة الباقية فقد كانت صلتهم بالله تعالى هى شغلهم الشاغل فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا موفين بعهده منجزين لوعده فقال فيهم مصوراً إيمانهم وتقواهم [(١)] : (شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة واطلاح سهر ، باعوا أنفسًا تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباهم ووصلوا كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك فى جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله) . هذه هى صورة أصحاب أبى حمزة وهى صورة مثالية لشباب الإسلام . أما أبو مسلم فقد سار على المنهج نفسه فى بيان صفات الأئمة الذين وصفهم بأنهم أواهون رهبان ، وهم هداة همهم حفظ الدين يتسابقون إلى الباقيات الصالحات يسيرون بسيرة العمرين ، وقد جرّدوا أنفسهم لنصرة الله وقدموا أرواحهم ثمنًا لهذا النصر ، وهم يتسابقون إلى الخيرات تهديهم إليها السنة الشريفة ، ولم تشغلهم الدنيا بمتاعها فباعوها لأنها فانية طلبًا للدار الباقية . ثم ذكر أنهم يقيمون حدود الله فى حكمهم قبل أن يقول فيهم ما قاله أبو حمزة الشارى فى أصحابه حين ذكر قيامهم فى الليل وتهجّدهم حتى أنحلهم هذا القيام فأصبحوا مثل الخيال . لقد جاءت الصورة معبّرة عن التفاصيل [(٢)] :

(١) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٧٥ .

(٢) الديوان : ٣٠٢ - ٣٠٣

أئمة حُفظ الدينُ الحنيف بهم ... من يوم قيل لدين الله أديانُ
صيدٌ سراة أباة الضيم أسد شرى ... شمس العزائم أواهون رهبانُ
سُفْن النجاة هداة الناس قادتهم ... طُهر السرائر للإسلام حيطانُ
تقبلوا مِدَح القرآن أجمعها ... إذا استحقَ مديح الله إيمانُ
على الحنيفية الزهراء سيرُهمُ ... والوجه والقصدُ إيمانٌ وإحسانُ
بسيرةِ العُمرين استلأموا وسطوا ... لشربة النهروان الكلُّ عطشانُ
مسومين لنصر الله أنفُسَهم ... أرواحهم فى سبيل الله قربانُ
سيماهمُ النورُ فى خلقٍ وفى خُلق ... وهديُهمْ سنةٌ بيضاء تبيانُ
لم تلههم زهرةُ الدنيا وزخرفها ... إذ همهم صالح يتلوه رضوانُ
باعوا بباقية الرضوان فانيهم ... كأن لذة هذا العيش أوثانُ
ما زايلت خطوةَ المختار خطوتُهم ... ولا ثنى عزمهم نفس وشيطانُ
فجاهدوا واستقاموا فى طريقته ... عُزُومُهم لصروح الدين أركانُ
وسلطوا بحدود الله حُكمهم ... حتى استقاموا لحكم الله سلطانُ
لله ما جمعوا لله ما تركوا ... لله إن قربوا لله إن بانوا

وهكذا نرى التشابه فى الصورتين عند أبى حمزة الشارى وأبى مسلم البهلانى ، ولا غرابة فى هذا فقد كان كل منهما ينطق بلسان العقيدة والإيمان ويحمل لواء التأييد للدعوة التى ينادى بها . إن الصورة التى رسمها أبو مسلم للأئمة تحمل أطيافًا من صورة الصحابة الذين امتدحهم كعب بن زهير فى لاميته المشهورة [(١)] :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ ... متيم إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وقد استلهم أبو مسلم هذه الأطياف وقام بصبغ لوحته ببعض ألوانها .
يقول كعب :

(١) انظر القصيدة فى ديوانه ٦ ، وفى مجانى الأدب ٢ / ١١ - ١٦ .

إنّ الرسول لنورٌ يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكّة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ... عند اللقاء ولا ميلٌ معازيلُ
لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

أما صورة تأييد أبى مسلم للإمامه وإظهار حبّه لأئمته فقد جاءت بأسلوب صريح أعلن فيه حبّه وتأييده للأئمة والإمامة مصرّحًا بقوّة بهذا التأييد معلنًا أنهم أنوار الهدى وأنّ محبتهم فرض واجب يعقبها عفو وغفران من الله تعالى ، وهم المستغاث بهم فى لحظات الضيق والضياع ، كما لا يصحّ إيمان امرئ إلا باتباعهم ولا يستقيم هداه إلا أن يدين بما دانوا به (١) :

أولئك القوم أنوارى هديتُ بهم ... عقبى محبتهم عفو وغفرانُ
أئمتى عمدتى دينى محجّتهم ... غوثى إذا ضاق بى فى الكون إمكانُ
لا يقبلُ الله دينًا غير دينهم ... ولا يصحّ الهدى إلا بما دانوا
من عهد بدر وأحد لا تُزعزهم ... عن موقف الحقّ أزمات وأزمانُ
حقيقة الحق ما دانوا به وأتوا ... وما عداه أخاليط وخُمّانُ
إن يشرف الناس فى الدنيا بشروتهم ... فثروة القوم إخلاص وإيقانُ
همُ الإباضية الزهرُ الكرام لهم ... بعزّة الله فوق الخلق سلطانُ

إن هذا الإعلان المؤيد للإمامة والتصريح العلنى بإظهار الحبّ والتأييد للأئمة يحمل فى طياته نغمة هى أقرب ما تكون من نغمة الشعر الذى قيل فى حب آل البيت ، وكأنما أعجب أبو مسلم بأسلوب الفرزدق فى مديحه لآل البيت وحبّه لهم ، فقد صرّح الفرزدق من قبل بحبّه وتأييده لآل النبوة فى قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبد الملك ومطلعها (٢) :

---

(١) الديوان ، ٣٠٣ .

(٢) انظر القصيدة فى ديوانه ، ٢ / ١٧٨ - ١٨١ .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحل والحرمُ

إن الذى يجعل الدارس يقرب من مرحلة تأكيد تأثر أبى مسلم بالفرزدق هو تشابه الصورتين عند كل منهما ، فقد جاء أبو مسلم بصورة قريبة جداً من صورة الفرزدق التى أعلن فيها حبّه وتأييده لآل البيت حتى أننا نجد مفردات بعينها وردت عند أبى مسلم كان الفرزدق قد وظفها فى قصيدته ناهيك عن المعانى التى اشتملت عليها الأبيات . ويتضح مدى تأثر أبى مسلم من خلال أبيات الفرزدق التالية فى مدح زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ومدح آل البيت (١) :

هذا ابن خير عباد الله كلهمُ هذا التقى النقى الطاهر العلمُ

سهل الخليقة لا تُخشى بوادره يزينه اثنان : حسن الخلقِ والشيمُ

حمّال أثقال أقوام إذا افتُدحِوا حلو الشمائل تحلو عنده نعمُ

إذا رأته قريشٌ قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ

يغضى حياءً ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسمُ

الله شرفّه قِدمًا وعظّمه جرى بذاك له فى لوحه القلمُ

مَن يشكر الله يشكر أوليّة ذا فالدين من بيت هذا ناله الأممُ

مشتقة من رسول الله نبعته طابت مغارسه والخِيم والشيمُ

بعد هذا المديح الذى زين به الفرزدق جيد زين العابدين ينتقل إلى ذكر آل البيت مادحًا إياهم مناديًا بحبهم معلنًا تأييده لهم ، ونلحظ التشابه بين مديح الفرزدق لآل البيت ومديح أبى مسلم البهلانى للأئمة من الإباضيين الذين أعلن ولاءه وتأييده لهم .

يقول الفرزدق :

من معشر حبهم دين ، وبغضهم كفرٌ ، وقربهم منجى ومعتصمُ

مقدّم بعد ذكر الله ذكرهمُ فى كلّ بدءٍ ومختوم به الكلِمُ

إن عُدّ أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل :«من خير أهل الأرض ؟» قيل : همُ

---

(١) المرجع السابق .

هم الغـــيــوث إذا مـــا أزمــةُ أزمت   والأسـد أسدُ الشرى والبأس محتدمُ
يُســـتـدفَع الشـرّ والبلوى بحـبــهـم   ويسـتـــربُ به الإحـــســـان والنعمُ

أما أسلوب أبى مسلم فى هذا المجال والذى يقرب من أسلوب الفرزدق فيدل على أن أبا مسلم قد أوتى حظًا كبيراً من الاطلاع على التراث الأدبى لكبار الشعراء فى مختلف عصورهم فتمثله ووظفه توظيفًا فنيًا رائعًا فى سبيل نجاح عمله الشعرى . أما أسلوب أبى مسلم فى النداء الوطنى والاستنهاض فشبيه بأسلوب أبى البقاء الرندى الذى لجأ إلى مناداة المسلمين واستنفار فرسانهم المسلحين بالسيوف المرهفة لكنهم يرتعون فى أوطانهم فى دعة وأمان لا تحركهم نخوة إسلامية ولا رابطة دينية وكأن القضية لا تعنيهم من قريب ولا من بعيد . والرندى عندما يجسّم ويشخص المصيبة الهائلة التى حلّت بالأندلس المسلمة وبأهلها من المسلمين إنما يحاول أن يثير فى المسلمين روح الجهاد مؤكداً حقيقة الرابطة الدينية التى تؤلف بين المسلمين والتى هى أقوى من أى رابطة أخرى ، ولذلك جاءت أبياته فى نونيته تحمل نغمًا من التقريع والسخرية من أولئك المتقاعسين الذين لم يهبّوا لنجدة إخوانهم الأندلسيين الذين عظمت مصيبتهم فى دينهم وأوطانهم ، هذه المصيبة التى سارت بحديثها الركبان . وسوف نلحظ هذا الأسلوب المتضمن للتقريع والتوبيخ عند أبى مسلم حينما يستنهض المسلمين للدفاع عن الحق والذود عن حمى الإسلام . يقول أبو البقاء (١) :

يا راكـبين عـتـاق الخيل ضـامـرةً   كـأنـهـا فى مـجـال السبق عـقـبـانُ
وحـاملين سـيـوف الهند مـرهـفـةً   كـــأنهـــا فى ظلام النقع نيـــرانُ
وراتعين وراء البـــحـــر فى دعـــةٍ   لـهـم بـأوطـانـهـم عـــــز وسلطان
أعـنـدكم نـبـــــأ مـن أهـل أنـدلـسٍ   فـقـد سَرى بحـديث القـوم ركـبـانُ
كم يستـغـيث بنا المستـضـعـفون وهم   قـتلى وأسـرى فـمـا يهـتـز إنسـانُ
مـاذا التـقـاطع فى الإسلام بينكمُ   وأنتم يا عـــبـــادالله إخـــوانُ
ألا نفـــوسٌ أبيّـــاتٌ لهـــا هممٌ   أمــا على الخــيــر أنصـارٌ وأعـوانُ

---

(١) نفح الطيب ، ٦ / ٢٨٠ - ٢٨١ .

ويستمر أبو البقاء فى محاولته الاستنهاضية ، لذلك يلجأ إلى تصوير جوانب من الفاجعة التى حلت بالمسلمين الأندلسيين الذين ذلوا بعد عزّ وهانوا بعد رفعة فأصبحوا رقيقًا يباعون فى سوق النخاسة ، كما تفرق شملهم وحيل بين الابن وأبيه وبين الطفل وأمه ، وانتهكت أعراضهم فاغتصبت نساؤهم ، وهم فى كل هذا لا حول لهم ولا قوة ، عاجزون عن رد الأذى عن أنفسهم وأوطانهم . وأما المصيبة الكبرى فهى إكراههم على التنصر بعد أن كانوا مسلمين ، وهكذا كانت المصيبة حالقة للدين لم تبق ولم تذر . وأبو البقاء فى تصويره هذا يحاول فى صرخة استغاثة أخيرة أن يستنهض المسلمين القاطنين وراء البحار ويحرك نخوتهم الإسلامية وروح الجهاد فى نفوسهم إن كانت هناك نخوة إسلامية أو روح جهاد . يقول أبو البقاء مصوراً واقع المأساة الأندلسية :

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفرٌ وطغيانُ
بالأمس كانوا ملوكًا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوانُ
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمرُ واستهوتك أحزانُ
يا ربّ أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرقُ أرواح وأبدانُ
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعتْ ... كأنما هى ياقوت ومرجانُ
يقودها العلجُ للمكروه مكرهةً ... والعين باكية والقلب حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان فى القلب إسلام وإيمانُ

لاشك أن هذه الصورة الحيّة المؤلمة للمأساة الأندلسية قد كانت فى خاطر شاعرنا أبى مسلم البهلانى حينما نظم نونيته ، فأضافت إلى نفسه الحزينة بُعداً جديداً من أبعاد الألم النفسى عبّر عنه خير تعبير بأساليب شتّى امتدت على مساحة قصيدته الطويلة .

إن هذا الأسلوب من أساليب الاستنهاض الذى استخدمه أبو البقاء قد راق لأبى مسلم فنهج الطريقة نفسها لما تفيده من قوة وتأثير ولما تفيده ياء النداء فى هذا المقام من معنى الاستغاثة وطلب النجدة والتلبية . وأبو مسلم كأبى البقاء يحاول فى أسلوبه

هذا أن يحث الرجال على الجهاد وأن يحفظوا أوطانهم ودينهم حيث لا وطن يبقى بعد ضياع الدين ، وهذا معنى مستمد من معانى أبى البقاء الرندى . كما يطلب أبو مسلم فى استنهاضه للقوم أن يحفظوا مجدهم ويحركوا شهامتهم وغيرتهم على الدين فينتصروا لله ويهبّوا بعد سُبات وتخاذل ، كما حاول أن يرسم لهم صورة مؤثرة لونها بأصوات الأرامل والأيتام متخذاً من دماء المسلمين أساسًا لها ، وهى صورة قريبة من صورة أبى البقاء التى رسم فيها حال المسلمين الأندلسيين والمأساة الأندلسية . يقول أبو مسلم :

يا للرجال وداعى الله بينكمُ ... لبوا الدعاء فإن الصوت قرآنُ
يا للرجال ألم يأنِ الجهادُ لكم ... بلى لقد فات إبّان وإبّانُ
يا للرجال أقيموا وزن قسطكمُ ... فما لكم قبل وزن القسط ميزانُ
يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم ... فما لكم بعد خذل الدين أوطانُ
يا للرجال احفظوا أحساب مجدكم ... إن لم تكن فيكم للدين أشجانُ
يا للرجال اندبوا لله غيرتكم ... فالوقت قد ضاق والتثبيط خسرانُ
يا للرجال ألا لله منتصرٌ ... فناصر الله لا يعروه خذلانُ
يا للرجال أرونى من شهامتكم ... إن الحوادث آسار وسيدانُ
يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم ... فالغاية الفتح أو موت ورضوانُ
يا للرجال ألم يحزنكم زمن ... طار البغاثُ به وانحطّ عقبانُ
يا للرجال ألم يدهش عقولكم ... صوت الأرامل والأيتام إذ هانوا
هذا اليتيم قد انحازت مفاصله ... من جلبة الجوع والظلاّم تخمانُ
يا للرجال بيوت الله قد هُدمت ... ومالها للعدا نهب وحلوانُ
يا للرجال دماء المسلمين غدت ... هدراً كما عبثت بالماء صبيانُ

إن هذا الأسلوب من أساليب الاستثارة والاستنهاض المتمثل باستخدام (يا) كأداة للنداء ، قد كرره أبو مسلم فى نونيته ولكن باستخدام أداة الاستفهام (أين) التى استخدمها أبو البقاء الرندى فى نونيته كاستفهام يفيد العِبرة والعظة فى قسم

من قصيدته بينما يفيد التحسّر والتفجع فى قسم آخر . ففى استخدام هذه الأداة للإفادة من العظات والعِبر يقول أبو البقاء (١) :

أين الملوكُ ذوى التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شاده شدادُ فى إرمٍ وأين ما ساسه فى الفرس ساسانُ
وأين ما حازه قارونُ من ذهب وأين عاد وشدّاد وقحطانُ

أما استخدامها لتفيد الحسرة والتوجّع والتفجع فنجدها فى أبياته التى يرثى فيها مدن الأندلس الضائعة بنغمة باكية كلها ألم وأنين (٢) :

فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسيةٍ وأين شاطبة أم أين جيانُ
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذب فياض وملآنُ

وهكذا نجد أن الشاعر قد أفاد باستخدامه هذا من معنى الآية القرآنية الكريمة ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ (٣) .

أما عند أبى مسلم فقد جاء استخدام (أين) بمعنى مختلف تمامًا حيث أفادت استثارة همم الرجال واستنهاض القبائل والدعوة للذود عن حمى الإسلام ونصر الدين .

يقول أبو مسلم (٤) :

فأين أين ذئاب الدوّ حُمْتَها بنو تمام ومن ربّته جعلانُ
وأين عنها الجنيبيون إنهم سعد العشيرة عليا مذحج كانوا
وأين راسبُ سيف الأزد إنهم سارت بصيتهم فى الأرض ركبان
وأين أهل الذمار الهشم بحرهم بالمجد والفضل فياض وملآنُ
وأين أولاد عيسى والحفاظ لهم نجد ضراغم أواهون رهبانُ

(١) المرجع السابق ، ٦ / ٢٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ٦ / ٢٨٠ .
(٣) القرآن الكريم ، الحاقة ٨ .
(٤) الديوان ، ٣٠٨ - ٣١١ .

وأين يحمدها الحرث الكرام ففي عزائم القوم جنات ونيرانُ
وأين المساكرة الصّيد الغطارف من ذوائب الأزد حيث المجد والشانُ

ويستمر أبو مسلم فى هذا الأسلوب من أساليب الاستنهاض ليصل عدد أبيات قصيدته التى استثار فيها القبائل والأحياء إلى ثمانية وثلاثين بيتًا وهى نسبة تقرب من عشرة فى المائة من مجموع أبيات القصيدة ، وهذا يدل على مدى تغلغل الروح الوطنية والدينية فى نفس الشاعر . ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الأبيات من القصيدة تعتبر سجلاً خالداً لأسماء القبائل والأحياء العمانية ببطونها وأفخادها . وإذا كان أبو البقاء الرندى قد لجأ إلى أسلوب تعنيف المسلمين لتخاذلهم وتقصيرهم تجاه إخوانهم فى الأندلس واتخذ من أسلوب تصوير المأساة الأندلسية وسيلة لتحريك الهمم وبث روح الجهاد ، فإن أبا مسلم قد لجأ إلى الأسلوب المباشر فى المناداة واستثارة الهمم للدفاع عن دين الله وديار الإسلام والذود عن الحنيفية البيضاء [(1)] :

كتائب الله ذودوا عن حياضكم كى لا يهدّمها بغى وكفرانُ
كتائب الله حاموا عن حنيفتكم قد لوّثتها خنازير وصلبانُ
كتائب الله دين الله فى طلَقٍ والمشرفيات فى الأيمان طلقانُ
كتائب الله أدعوكم إلى شرفٍ عقباه إن تصدق النيات رضوانُ

ويلاحظ أن أبا مسلم قد وظف فى استثارته للحمية الدينية عبارات نجد مثيلاً لها فى نونية أبى البقاء . فعلى سبيل المثال يقول أبو البقاء فى تقريع المسلمين وتذكيرهم بالمصاب الإسلامى الأندلسى :

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ فقد سرى بحديث القوم ركبانُ

أما أبو مسلم فيقول :

وأين راسبُ سيف الأزد إنهم سارت بصيتهم فى الأرض ركبانُ

وفى بيت آخر يقول أبو البقاء فى الحسرة على ضياع مدينة إشبيلية :

وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ ونهرها العذب فياض وملآنُ

---
(١) الديوان ، ٢١٢ .

أما أبو مسلم فيقول :

وأين أهل الذمار الهشم بحرهم بالمجد والفضل فياض وملآنُ

وإذا كان أبو البقاء يستنهض وهو فى موطنه المسلمين وراء البحار فإن أبا مسلم كان يستنهض المسلمين فى وطنه الأم وهو وراء البحار .

لقد جاء أسلوب أبى مسلم فى نونيته متسمًا بالقوة التى تغلب على كل أشعاره الوطنية بالفخامة والجزالة فى الألفاظ التى كانت تنقاد له بيسُر وسهولة دون عناء ولا أدل على هذه الجزالة والفخامة من استخدامه لألفاظ تتناسب مع المعنى الذى يضمّنه أبياته حتى نجح فى نقل سامعيه إلى جوّه الذى حلّق فيه وصب فى آذانهم إيقاعات موسيقية مؤثرة تعكس الحالة النفسية للشاعر وتصور مدى الانفعال النفسى الذى كان يعتمل بداخله من حزن على ما كان بين المسلمين من فرقة وتنافر .

أما القافية فى هذه القصيدة والتى تنتهى بالألف والنون ، فقد اتخذ أبو مسلم من نونية أبى البقاء مثالاً حيًا انتهجه كجانب مؤثر وفعّال من جوانب القصيدة الفنية التى جمعت بين الحركة والإيقاع والعناصر الموسيقية الداخلية التى تعكس المشاعر المتأججة فى نفس الشاعر القلقة المتألمة .

إن العلاقة بين بحر القصيدة وبين موضوعها علاقة وطيدة ذات صلة حميمة بالموضوع وأعنى بذلك أن يتوافق الإيقاع الداخلى فى نفس الشاعر مع الإيقاع الخارجى الذى يظهر بشكل موجات صوتية متناغمة وذبذبات موسيقية فى أرجاء القصيدة . لقد استخدم أبو مسلم لنونيته - وقبله أبو البقاء - بحر البسيط وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وموسيقى هذا البحر مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بموضوع القصيدة عند الاثنين ، فإذا ما عرفنا أن النغمة الموسيقية لهذا البحر توحى بالخطاب الموجه بلهجة عنيفة فيها شدة تارة وتحضيض تارة أخرى أدركنا مدى عمق الشاعرية فى نفس الشاعر ومدى رهافة الحس الفنى لديه ليتمكن من توظيف اللحن الموسيقى والرنين الإيقاعى بصورة مؤثرة وفعالة . إن الخطاب الشعرى فى قصيدتى أبى مسلم وأبى البقاء يتسم بالنداء

والاستصراخ بمعزوفات إيقاعية تترك أثراً كبيراً وصدى عميقًا فى نفوس الذين يصغون إليها .

أما استخدام حرف النون وقبله الألف فى قافية الشاعرين ، فله دلالة كبيرة ذات صلة وطيدة بموضوع القصيدتين . وحرف النون كما نعلم حرف جهرى ذلقى أى مجهور متوسط أنفى يتسرب الهواء معه من الأنف من اللثة العليا مع امتداد النَفَس من الأنف ، ومن هنا جاءت مراعاة الشاعر لقافية القصيدة حيث وفق فى اختياره لحرف الروى ليكون الحرف الأخير وليكون له موسيقى فيها ذبذبة صوتية متناسبة مع نغمات الحرف الطويل ، ومن هنا كان أفضل هذه الحروف لموضوع القصيدة هو حرف النون الذى يتردد بأنفاس الأنف والحلق . ولا ننسى أن هناك أصواتًا تعبّر عن الشجن فى النفس ، ويبدو أن الشاعر قد تنبه إلى ما فى الألف والنون من تأثير موسيقى سماعى فوظفهما التوظيف المثالى فى نونيته . إن علاقة الصوت بالحالة النفسية عند المتكلم العادى هى علاقة احتمالية واعتباطية ، أما عند المتكلم المبدع الواعى فتتسم بالعمق ولها دلالة نفسية وفنية .

إن وجود الألف قبل الحرف الأخير فى نهاية القافية قد مكن الشاعر من مد صوته بها ، وفى هذا راحة نفسية له من ذلك الألم النفسى المسبِّب عن إحساسه بالغربة وشعوره بالأسى لما حل بأمته الإسلامية من فرقة وهوان . إن طول القصيدة عند أبى مسلم لم يضعف من تأثير القافية كما أن مفردات قافيته تدل على غزارته اللغوية حيث تحتشد المفردات غزيرة بين يديه وتأتيه طواعية يختار منها ما يشاء مما يحتاجه موضوعه الذى ينظم فيه من ألفاظ ذات فخامة وجزالة .

الصور الفنية :

إذا كانت المفردات اللغوية تنقاد بيُسر وسهولة لأبى مسلم لينظم من لآلئها عقد روائعه الشعرية ، فإن الصور الفنية ما كانت لتتأخر عن التدافع إلى خياله الشعرى ليربط بينها وبين موضوع القصيدة فى وحدة وانسجام ، ويأتى بناء القصيدة نتيجة لذلك مرتديًا ثوبًا قشيبًا من الجمال الفنى والكمال البيانى . لقد برع أبو مسلم فى دقة

التصوير وتناسق الصور الفنية فكان فنانًا ماهراً يعرف كيف يرسم اللوحات الأدبية التى تعبّر عن أحاسيسه وأفكاره .

لقد جاءت نونية أبى مسلم مليئة بالصور البيانية والمحسنات البديعية . أما الصور البيانية فأكثر ما تتضح بالاستعمارات التى وردت فى بعض أبيات القصيدة بينما تظهر المحسنات البديعية فى توظيف الطباق والمقابلة والجناس وحسن التقسيم ومراعاة النظير توظيفًا له أبعاد نفسية ودلالات معنوية . ولا تكاد عين المرء تطالع البيت الأول حتى يبهرها جمال الصورة البيانية فيه المتمثلة بالاستعارة البديعية حينما شبه البروق بركب يسوقه الحداة المنشدون فكان موفقًا غاية التوفيق فيما يسمى ببراعة الاستهلال :

تلك البوارق حاديهن مرنانُ   فما لطرفك يا ذا الشجو وسنانُ

ويتضح البعد النفسى فى هذه الصورة من خلال الأرق الذى أصاب الشاعر ، هذا الأرق الذى كان نتيجة للمعاناة النفسية بسبب البعد عن الأحبة والأوطان . إن البعيد عن الأحبة والنائى عن الديار يبحث عادة عن وسيلة للوصول ، فكان الخيال الشعرى حافزاً لرسم هذه الصورة المتحركة بركب المرتحلين وصوت الحادى الذى يسير فى مقدمة القافلة . كما نلمح الاستعارة وإيحاءاتها النفسية فى البيت التالى :

إن هيج البرق ذا شجو فقد سهرت   عينى وشبت لشجو النفس نيرانُ

لقد أهاج البرق وما سببه من أمطار أشجان الشاعر ، فاشتعلت فى نفسه نيران الشوق والحنين للأحبة والأوطان . إنها صورة معبّرة عن لظى الحنين المضطرم فى نفسه والذى تمخض عن سهر دائم وأنى لمشتاق أن يغمض له جفن أو أن ينام قرير العين . كما نلمح بلاغة الاستعارة فى إطار فنى جميل حينما ذكر مدينة نزوى عاصمة الإمامة :

ما طار طائرها لله محتسبًا   له جناحان إيقان وعرفان

إنها صورة فنية معبّرة عن مركز نزوى الدينى وما تحتله من قدسية بين سائر المدن ، فقد جعل لها طائراً يطير بجناحى اليقين والعرفان .

وكما برع أبو مسلم فى استخدام الصور البيانية ، فقد برع أيضًا فى استخدام المحسنات البديعية التى أضفت ظلالاً بهيجة على اللوحة الفنية للقصيدة وأضافت بعداً

آخر عميقًا لمعانى القصيدة وإيحاءاتها . فعلى سبيل المثال نجد أن أبا مسلم يلجأ إلى استخدام الطباق والمقابلة لزيادة الإيضاح وتأكيد المعنى . والمعروف أن الطباق هو الجمع بين ضدين (١) ، والضد يظهر حسنه الضدّ ، ومن أمثلته فى نونية أبى مسلم :

يا برق حرك همومى إن تكن سكنت ... فكل حظى تحريك وإسكانُ

حيث جاء الطباق فى « حرك » و « سكنت » فى الشطر الأول بينما بدا واضحًا فى لفظتى « تحريك » و « إسكان » . ولابد من التأكيد على أن هذا الأسلوب البديعى لم يرد هنا كحلية لفظية لا معنى لها ، وإنما عمد الشاعر إلى تصوير الحالة التى كان يعانى منها ، فهو متململ لا يقر له قرار ، لذلك أتى بلفظتى « تحريك » و « إسكان » فى الموقع المناسب للتعبير عن حالة نفسية معينة . وينطبق هذا الاستخدام البديعى على كل المعانى التى طرقها الشاعر ووظف فيها المطابقة بين ضدين من مثل قوله فى ذكر صفات الأئمة :

هم أسمع الناس فى حق وأبصرهم ... وفى سواه هُمُ صم وعميانُ

وما يقال عن توظيف الطباق ، يمكن أن يقال عن توظيف المقابلة وهى أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب (٢) كما فى البيت السابق .

أما الجناس فنجده فى أبيات متفرقة من القصيدة حيث استخدمه الشاعر بهدف التوضيح ووظفه توظيفًا فنيًا جميلاً لأن الجناس يعنى التماثل بين لفظتين فى معنيين مختلفين ، ومن أمثلته ما قاله أبو مسلم فى مدح الأئمة أيضًا :

سيماهم النور فى خلق وفى خلق ... وهديهم سنةٌ بيضاء تبيانُ

فقد جاء الجناس فى لفظتى « خلقْ » و « خُلُق » لبيان ما يمتاز به الأئمة فى نزوى من صفات تسمو على صفات البشر . وفى مثال آخر نسمعه يقول فيهم :

مقيدون بحكم الله حكمتهم ... وهمهم حيثما كان الهدى كانوا

فهناك جناس ناقص بين لفظتى « حكم » و « حكمة » .

---

(١) علم البديع ، ٧٦ .

كما أجاد أبو مسلم فى استخدام لون بديعى آخر وهو حسن التقسيم ، والمراد به فى القصيدة تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر إلى أقسام تمثل تفعيلاته العروضية أو إلى مقاطع متساوية فى الوزن (١) . ومثاله عند أبى مسلم قوله فى مدح الأئمة أيضًا :

لله ما جمعوا ، لله ما تركوا   لله إن قربوا ، لله إن بانوا

فالشاعر هنا يحاول استيفاء أقسام المعنى ، ولإيضاح هذا الجانب عند أبى مسلم يحسن ذكر مثالين معروفين : نجد الأول منهما عند أبى تمام فى بائيته المشهورة فى فتح عمورية حيث يقول فى الخليفة المعتصم (٢) :

تدبير معتصم ، بالله منتقم   لله مرتقب ، بالله مرتغبِ

بينما نجد المثال الثانى عند الخنساء فى رائيتها المشهورة التى ترثى فيها أخاها صخراً وتذكر فيها مناقبه (٣) :

حمال ألوية ، هباط أودية   شهاد أندية ، للجيش جرارُ

نحار راغيةٍ ، ملجاءُ طاغيةٍ   فكاكُ عانيةٍ ، للعظم جبارُ

ومن شواهد حسن التقسيم الأخرى التى وردت عند أبى مسلم :

صعب شكائمهم ، سحب مكارمهم   إن حاربوا صعبوا ، أو أكرموا هانوا

شم إذا حزموا ، نار إذا عزموا   شهب إذا رجموا ، للفضل هتان

وكما أحسن شاعرنا فى استخدام هذا اللون البديعى ، فقد برع فى استخدام لون بديعى مختلف وهو مراعاة النظير الذى يفيد التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة ، أى أن يجمع الشاعر بين أمر وما يناسبه (٤) . ومثاله فى نونية أبى مسلم حين يذكر الأئمة ويظهر مناقبهم :

صيد ، سراةٌ ، أباة الضيم ، أسد شرى   شمس العزائم ، أواهون ، رهبانُ

---

(١) المرجع السابق ، ١٣٩ .

(٢) الديوان ، ١٥ .

(٣) الديوان ، ٤٩ .

(٤) علم البديع ، ١٧٩ .

كما لم يفت أبا مسلم أن يستمد من القرآن الكريم معينًا لا ينضب يقتبس منه آيات كريمة ليضمنها أبياته بهدف تقوية المعنى وإلباسه ثوبًا زاهيًا من الفخامة البلاغية التي يعتبر القرآن الكريم مصدرها الرئيس . ومن أمثلة تضمينه لبعض معانى القرآن الكريم ما نجده فى الأبيات التالية :

جدّو إلى الباقيات الصالحات فلم ... يغنهم فى التقى سر وإعلانُ

حيث نجد فى الشطر الأول اقتباسًا من الآية الكريمة ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملاً ﴾ [1] . أما فى بيته التالى :

مضوا وآثارهم نورٌ وذكرهم ... رحمى ومضجعهم روح وريحانُ

فنجد فى نهاية الشطر الثانى اقتباسًا من الآية القرآنية ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحانٌ وجنة نعيم ﴾ [2] . كما تتضمن الأبيات التالية معانى قرآنية مقتبسة من آيات كريمة :

يختص من شاء بالرحمى ويصرفها ... عمن يشاء وفى الحكمين رحمانُ

يا للرجال أقيموا وزن قسطكم ... فما لكم قبل وزن القسط ميزانُ

إن تنصروا الله ينصركم فلا تهنوا ... فالكفر فى المقت والإسلام رضوانُ

ففى البيت الأول نجد اقتباسًا من الآية القرآنية الكريمة ﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾ [3] . بينما نجد فى البيت الثانى اقتباسًا من الآية الكريمة « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان » [4] . أما فى البيت الثالث فالاقتباس من الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم » [5] .

لقد أضفت الصور البيانية والمحسنات البديعية والاقتباسات القرآنية جمالاً وروعة وتأثيراً على هذا العمل الرائع وتضافرت كل عوامل النجاح لتجعل من نونية

(١) سورة الكهف ، ٤٦ .
(٢) سورة الواقعة ، ٨٨ - ٨٩ .
(٣) سورة البقرة ، ١٠٥ ، سورة آل عمران ، ٧٤ .
(٤) سورة الرحمن ، ٩ .
(٥) سورة محمد ، ٧ .

شاعرنا الكبير عملاً فنيًا متميزاً يستحق البقاء والخلود .

بقى أن أشير إلى أن أمير الشعراء أحمد شوقى قد عارض بدوره أيضًا أبا البقاء الرندى بقصيدته (١) :

قم ناج جلق وأنشــد رسم من بانوا   مــشت على الرسم أحـداث وأزمــان

لكن معارضته هذه كانت من باب المشاركة القومية فقد كان أمير الشعراء العرب ويدعوه الواجب إلى النهوض بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه كأمير للشعر العربى .

أما شاعرنا أبو مسلم فقد جاءت معارضته لأبى البقاء الرندى نابعة من حقيقة تجربة عاشها الرجل فجاءت نابضة بالحياة ومعبّرة عن أصدق مشاعر الوطنية والروح الإسلامية ، حيث كان الشاعر أبو مسلم يحمل هموم أمته الإسلامية ، يفرح لفرحها ويأسى لمصابها وآلامها ويشير إلى طريق الخلاص من هذه المصائب والآلام ، فكان كالطبيب الذى يجد العلاج لمرضاه ليبرأوا مما هم فيه .

وإذا كانت نونية أبى البقاء هى أشهر قصيدة أندلسية فى رثاء الممالك الزائلة فى الأندلس ، فإن نونية أبى مسلم هى من أشهر قصائد الوطنيات المشبعة بروح الاستثارة والاستنهاض . ولا غرابة فى ذلك فقد كان الرجل يمتاز بشاعرية فذّة انقادت له فيها أسرار الفصاحة والبيان . إذ ما كان يفرغ من نظم قصيدة حتى تتلقفها الآذان وتسير بها الركبان فكان كما قال المتنبى عن نفسه (٢) :

ومــا الدهر إلا من رواة قــصــائدى   إذا قلت شعــراً أصـبح الدهر منشـدا
فــســار به من لا يســيـرُ مـشـمـراً   وغنّى به من لا يغـنى مــغــرّدا

(١) الشوقيات ، ٢ / ١٠٠ .
(٢) الديوان ، ١ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - البستانى ، فؤاد أفرام : المجانـى الحـديثة (عن مـجانى الأب شيـخو) ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٣ - البهلانى ، أبو مسلم ناصر بن عديم الرواحى : الديوان ، تحقيـق عبد الرحمن الخزندار ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦ .

٤ - أبو تمام ، حبيب بن أوس : الديوان ، شرح وتعليق شاهين عطية ، دار صعب ، بيروت ، (ب.ت.) .

٥ - الجروان ، محمد راشد : رسالة إلى ولدى ، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر ، الشارقة ، ١٩٨٥ .

٦ - ابن حمد يس ، عبد الجبار : الديوان ، صححه وقدم له إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٧ - الخصيبى ، محمد بن راشد : شقائق النعمان على سموط الجمان فى أسماء شعراء عمان ، الجزء الثانى ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان .

٨ - الخنساء ، تماضر بنت عمرو : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، (ب.ت.) .

٨ - درويش ، أحمد : مدخل إلى دراسة الأدب فى عمان ، دار الأسرة ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .

١٠ - دعبيس ، سعد : دراسات فى الشعر العمانى ، دار المعرفة الجامعية الأسكندرية ، ١٩٩٢ .

١١ - الدقاق ، عمر : ملامح الشعر الأندلسى ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧٣

١٢ - ابن دحية ، عمر بن الحسن : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى وآخرين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٣ - ابن رشيق القيروانى ، الحسن : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٥

١٤ - الزيات ، عبد الله محمد : رثاء المدن فى الشعر الأندلسى ، جامعة قاريونس ، ١٩٩٠ .

١٥ - الشكعة ، مصطفى : الأدب الأندلسى - موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٦ – شوقى ، أحمد : الشوقيات ، الجزء الثانى ، الكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (ب.ت.) .

١٧ – صفوت ، أحمد زكى : جمهرة خطب العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت (ب.ت.) .

١٨ – الصقلاوى ، سعيد : شعراء عمانيون ، مسقط ، ١٩٩٢ .

١٩ – ضيف ، شوقى : تاريخ الأدب العربى – عصر الدول والإمارات (الأندلس) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٢٠ – الطائى ، عبد الله : الأدب المعاصر فى الخليج العربى ، مطبعة الجبلاوى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٢١ – الطائى ، عبد الله : شعراء معاصرون ، مطبعة الألوان الحديثة ، مسقط ، ط١ ، ١٩٨٧ .

٢٢ – عباس ، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة السابعة ، (المطبعة الأولى ١٩٦٢)

٢٣ – عتيق ، عبد العزيز : علم البديع ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٢٤ – عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية فى العصر الجاهلى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧ .

٢٥ – على ، على عبد الخالق : الشعر العمانى – مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢٦ – الفرزدق ، همام بن غالب : الديوان ، الجزء الثانى ، دار صادر ، بيروت ، (ب.ت.) .

٢٧ – المتنبى، أحمد بن الحسين : الديوان ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٨ – محمد عبد الرحمن حسين : رثاء المدن والممالك الزائلة فى الشعر العربى حتى سقوط غرناطة ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٩ – المقرى ، أحمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء السادس ، تحقيق يوسف البقاعى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦ .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الرابع ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٣٠ – منقذ ، أسامة بن منقذ : المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازى ، القاهرة ١٩٦٨ .

٣١ – وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان : فعاليات ومناشط المنتدى الأدبى ، حصاد أنشطة المنتدى لعام ٩١ – ١٩٩٢ ، إصدار يونيو ١٩٩١ ، مسقط – سلطنة عمان